

الشعر، التصوف وسؤال الوجود عند أدونيس

Poetry, mysticism and the question of existence for Adonis

نعيمة بن عروسة*¹، أسماء خديم²

asma.khedime@univ-mascara.dz

naima.benarroussa@univ-masca.dz

¹ جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر² جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر

تاريخ النشر: 2021/07/31

تاريخ القبول: 2021/05/21

تاريخ الإرسال: 2021/04/12

ملخص:

يعدّ أدونيس كأهم أقطاب الشعر العربي الحداثي المعاصر حاول الاستفادة من التراث الصوفي وربطه بالفكر الغربي محاولا التأسيس لعالم شعري يقوم على إعادة النظر للمورث الشعري العربي وإعادة بناء اللغة الشعرية الجديدة حيث ارتبط الشعر عنده بالتصوف وأصبح الشاعر يسلك منحى الوصفي في محاولته لكشف وفهم لقضايا العالم والوجود ونجد تشابه بين لغته ولغة الصوفي وامتازت بالعمق والتميز، ساعيا من خلالها إلى نفي وتجاوز كل الثوابت والمورثات طامحا ومناشدا للحرية والانفتاح والتواصل مع الآخر من أجل كشف وخلق رؤى شعرية جديدة جاعلا من الذات الشعرية ذاتا مبدعة وخالقة تتخطى الواقع وتطمح لفهم العالم الغيبي الميتافيزيقي .

الكلمات المفتاحية: الشعر ؛ التصوف ؛ الكشف ؛ الوجود ؛ الرؤيا .

Abstract: Adonis is considered as the most important pole of contemporary modernist Arab poetry. He tried to benefit from the mystical heritage and link it to Western thought, trying to establish a poetic world based on reviewing the Arab poetic heritage and rebuilding the new poetic language. A similarity between his language and the language of the Sufi and was distinguished by depth and distinction, seeking through it to deny and transcend all constants and genes, aspiring to freedom, openness, and communicating with the other in order to reveal and create new poetic visions, making the poetic self a creative and creative subject that transcends reality and aspires to understand the metaphysical world.

Keywords: Poetry; Mysticism; Detection; Existence; Vision.

* المؤلف المرسل: naima.benarroussa@univ-masca.dz

مقدمة:

بدأت رياح التجديد والتغيير تهب على الأوساط الثقافية والشعرية العربية، مستفيدين من التصورات والتغييرات والعمولة الغربية التي شملت كل الميادين لتبرز توجهات ورؤى وأقطاب عربية ساهمت في التغيير وحمل مشعل التجديد جاعلين من الحدائة الشعرية الغربية مرجعية لها تسير على مسارها، مستفيدين في الوقت ذاته من التراث العربي القديم لتتشكل بهذا حدائة شعرية عربية مزججة بين ما هو تراثي عربي وبين ما هو حدائي غربي.

حاول أدونيس الناقد قراءة الشعر العربي القديم وتوظيفه والاستفادة من مزاياه وتوظيفها من اجل بناء نص شعري حدائي يواكب التغييرات والتطورات العالمية، فاحتوت القصيدة الشعرية على ما هو شرقي وغربي وعربي لتضم الأساطير الشرقية واليونانية القديمة وتخرج على قراءة الشعر العربي القديم ومحالة تفسيره والعودة له متأثرة بالفكر الغربي الحديث متشعبة بالروح الصوفية والعقائد الإسلامية، فلقد حاول أدونيس الجمع والأخذ من كل الأقطاب والاستفادة منها كل على حدى ليشكل بهذا أسلوبه ومنهجه الخاص به في قالب شعري عربي معاصر يحاول التأسيس لخطاب وجودي معاصر بسعي للتعبير عن الذات الإنسانية المعاصرة فاسحة المجال للإبداع والانطلاق متحررة من كل القيود القديمة حيث تحررت القصيدة المعاصرة مع أدونيس من الأوزان والمعايير التقليدية مقتحمة في للوقت نفسه العالم الفلسفي الصوفي والبحث فيه مشكلة بذلك رؤية شعرية معاصرة تجمع بين الفكر والشعر لتكشف الذات عن ذاتها وتمارس وجودها داخل هذا الخطاب الشعري الوجودي الجديد .

نظر ادونيس للشعر على أنه " رؤيا" بحيث يصبح الشاعر خالق للمعاني وموظف للكلمات ويكون الشعر بهذا مستودع للحقائق كاشفا لها وكان هدف أدونيس من خلال هذه التجربة الشعرية الصوفية الجديدة الخروج على المألوف واللغة الشعرية السائدة، والتأسيس لخطاب شعري صوفي قادر على تخطي كل ما هو تقليدي وثابت باحث عن الإبداع والتجدد من اجل للهوض بالشعرية العربية المعاصرة. كيف وظف أدونيس الخطاب الصوفي من خلال النص الشعري الحدائي، وكيف نظر للغة الصوفية وكذا الشاعر الصوفي؟ وماهي أهم المحطات الصوفية التي وقف عندها؟

1. أهم الأقطاب الدينية والفلسفية التي أثرت في فكر أدونيس

المرجعية الصوفية:

تنوعت مصادر وثقافة أدونيس الشعرية اختلفت بين ما هو غربي سوريالي وبين ما هو إسلامي صوفي فلقد حاول أدونيس الجمع والأخذ من كل الأقطاب والاستفادة. طُرح سؤال على أدونيس في حوار معه أهم الأقطاب التي تأثر بها فأجاب انه تأثر بثلاثة اتجاهات، فأجاب بداية انه تأثر بالفكر الصوفي ثم فلسفة هيراقليطس أما الاتجاه الثالث فكان نيتشه أو الفلسفة الألمانية، وفي نفس الحوار سئل عن تعريفه ونظريته للصوفية فكانت إجابته " هي ذلك الذي سميته "الهيام الكوني". هذا السحر الذي يلين العالم ويجعله أليفا حاضرا بين يدي الإنسان ... الصوفية العربية كما أفهمها شرعيا هي هذا النسب المبتوث في العالم وفي الأشياء بحيث يصبح الاعلم كله شفافا ولا يعود هناك حواجز بين الشخص والآخر بين الذات والموضوع بين العالم الداخلي والعالم الخارجي .."¹ الصوفية عند أدونيس هي ذلك الكل الذي يحاول التوحيد بين متناقضات العالم ويجعلها كل واحد فهمي بالنسبة له السحر الذي يحول العالم ويجعله مألوفا أو هي هذا الإحساس الوجودان الداخلي الذي يبعث عالم مظلم إلى عالم واضح منفتح على العالم والوجود.

اعتمد أدونيس على المصدر الصوفي حيث استقى منه بعض الأفكار والتوجهات وحاول اسقاطها على تكوينه الشعري، فكانت له عدة مؤلفات ذات التوجه الصوفي مبرزا عن الحب الإلهي من خلال قصائده فقد «بدأت رياح الفكر الفلسفي المعاصر تهب على الشعري "أغاني مهيار الدمشقي. ثم الفكر الصوفي في كتاب " التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار". والفكر الديني في «المسرح والمرايا" لكن برؤية تساؤليه نقدية تمثلها على الأخص قصيدة "السماء الثامنة أو رحلة في مدائن الغزالي" "² اعتبر ديوان "أغاني مهيار الدمشقي" أول تفجير للموهبة والإبداع عند أدونيس الذي يجمع بين الشعري والصوفي فقد استطاع أدونيس من خلاله أن يؤسس لعالم شعري خلاق ومبدع ومعاصر وأن يضع بصمته الشعرية ويوصل صوته وشعره للعالم باعتباره نص شعري مبتكر وجديد يطلعنا عن ذات الشاعر الخاصة وينقل أفكارها وألمها وحلمها وهدفها الشعري .

¹ أسامة إسبر: أدونيس: الحوارات الكاملة، الجزء الأول، (1980-1960)، بدايات للطباعة والنشر، سورية 2010، ط2، ص32-36

² وائل غالي: الشعر والفكر أدونيس نموذجاً الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص 81

قرأ أدونيس لشعراء التصوف أمثال ابن عربي والحلاج والنفري، وتحدث في حوار له عن قراءته إلى جانب الشعر العربي للعديد من الشعراء الصوفيين دون استثناء فكان حبه وشغفه كبيرين للمتصوفة، ويعتبرها المؤثر الأساسي الذي ساعده على فهم قضايا الكون والوجود ومحاولة معالجتها تفسيرها بنظرة صوفية وهي التي اوحت له فكرة المرئي واللامرئي "كنت أقرأ إل جانب الشعر العربي نصوص المتصوفين بلا استثناء.. فثمة في داخلي بعد ديني بمعنى ما. لكن هذا البعد الديني تحول إلى بعد كوني، وبعد طبيعي، وبعد وجودي، ثم أن فكرة المرئي واللامرئي جاءت من الباطن والظاهر." ¹ اعتبر أدونيس أن الصوفية من اهم المؤثرات التي بنى توجهه وفكره عليها خاصة فيما يخص سؤال الوجود وبان هذا التوجه الصوفي لايزال قائما إلى اليوم وواصل أدونيس في توسيعه لذلك ودعمه باطلاعه على الثقافة الغربية وهذا ما ظهر وتجلى في كتابه الصوفية والسريالية.

اقتبس أدونيس من رواد الصوفية عدة نصوص وكان النفري أبرزهم فكانت أعماله مليئة باقتباسات نقلها أدونيس عن نصوص النفري، وهذا يدل على المكانة الكبيرة التي احتلها النفري عند أدونيس ومدى اهتمامه بقراءة كتبه ومؤلفاته فقد " عرف أدونيس كتاب النفري "المواقف والمخاطبات" معرفة عميقة بحيث لا نبالغ إذا قلنا انه يكاد يحفظه عن ظهر قلب، وقد ظهر ذلك الكتاب في اعمال ادونيس منذ وقت مبكر، فاقتبس أدونيس عبارات من النفري جعلها في صدر قصائده ودواوينه فمنذ سنة 1962 عرفت عبارة النفري الذائعة "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة " طريقها إلى أعمال ادونيس فاقتبسها في صدر ديوانه "كتاب التحولات" ² والمتصفح لكتب أدونيس وأعماله يجد تداخل بين أعمال النفري وكذا نصوص أدونيس فكان كثير الاقتباس لعباراته ومفرداته كما نجد الكثير من النصوص التي يبدي فيها أدونيس إعجابه بالنفري وبقية المتصوفة على غرار ابن عربي والسهرودي محالا الاستفادة منهم ونقل معارفهم وتوظيفها في النص الشعري الجديد .

¹ صقر أبو فخر، حوار مع أدونيس، (الطفولة، الشعر، المنفى)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2000، ص 50

² إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر) للنشر والتوزيع جامعة طنطا، 1995، ص 260

2. حدود التجربة الصوفية عند أدونيس

الموقف الشعري الأدونيسي تجاه الصوفية:

بالرغم من ميل أدونيس إلى المرجعية الصوفية والتي كانت سبب في إلهامه وساعدته على التنظير الشعري، غير أن هذا لم يمنع أدونيس من الاستقلال بذاته ومواصلة تغيير مصيره ومحاولة اكتشاف نفسه كذات عربية فاعلة في هذا الوجود " على العموم فإننا نلاحظ كيف أن أدونيس يتكئ على الآخر، من دون أن يقف عند حدوده بل يتجاوز ما وجد وما استقر من مقولات في سبيل بناء نظرية شعرية متماسكة ...، وكل ما يخدم هذا الواقع الشعري يعمل أدونيس على ضرورة حضوره في التنظير الشعري، حتى وإن كان ذا أصول غربية والمهم عنده هو نقد هذا الأصول وتجاوزها،¹ ميل أدونيس الثقافة الغربية وكذا الصوفية الإسلامية من شعراء وفلاسفة لا يعني انعدام شخصيته الثقافية الفكرية بل يؤكد على إصراره على العمل على التغيير والإصلاح فكان هدفه خدمة الواقع الشعري ولا يهم المرجع الذي استقى منه أفكاره سواء أن كان غربي أو عربي أو صوفي، المهم لديه خدمة الشعر العربي المعاصر وتجاوز المقولات والأفكار التقليدية الساذجة والعمل على الرقي بالقصيدة الثرية العربية.

تأثر أدونيس بالصوفية لا يعني حتما الصوفي بمعناه الإسلامي ولكن يعني به التوجه الصوفي الذي ينشد ويسعى إلى الثورة والهدم والتدمير والتجاوز والتي استقاها أدونيس من الماركسية ومن هنا نجد تزاوج لمفهومين عند أدونيس التوجه الصوفي الرامي إلى الثورة والتغيير والتوجه الماركسي الثوري الهادف إلى الهدم والإبداع: "لقد تمثل أدونيس هذه الفلسفات الداعية إلى الثورة والهدم من قرمطية إلى باطنية إلى شيوعية، ودمجها في شعره كما كان يصنع الشيخ الأكبر معي الدين بن عربي حينما تأثر بالأفلاطونية المحدثة والإشراقية... كذلك توصل أدونيس إلى فلسفة " وحدة الوجود المادية " وبذلك يكون طريق أدونيس مليئا بالرمز والأفكار المتباينة وليس هو كطريق الصوفية وإن تشابه معه في الاسم² يحاول أدونيس من خلال شعره دمج جميع المذاهب والمعتقدات والتوجهات الغربية الداعية إلى الثورة والتغيير والكاسرة للحواجز وهو في هذا يشبه

¹ بشير تاويريت آليات الشعرية الحدائنية عند أدونيس (دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، عالم المعرفة، القاهرة، ط1، 2009، ص164

² إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر)، مرجع سابق ص 253

توجه ابن عربي الذي سبقه في التأثر بالفلسفة اليونانية والملاحدة والصوفية وعلم الكلام وتوظيفها في فلسفته وأفكاره الداعية إلى وحدة الوجود، فكانت غاية أدونيس تباعا لابن عربي الصوفي الثورة والتغيير والتجديد باعتبار أدونيس يستمد معظم أفكارها البناء والهادفة من التراث الصوفي فكانت غاية تأسيسية تغييرية ثورية تسعى إلى قول وحدة الوجود وتنبذ التناقض والاختلاف وهذا ما تمثل في شعره الصوفي الرمزي .

يقول ادونيس عن الصوفية: "ليست الصوفية انفصالا عن الواقع وليست نقبضا للواقع، الصوفية نزعة مأساوية أي تراجيدية تتم في جدل الفرد والشخص، المخلوق والخالق. الموت ولحياة ..، الصوفي هو ديونيزوس وأبولون في آن ..الصوفي إذن لا ينفى الحياة لأنها باطلة عدمية بل لأنها تحجب الحياة الحقيقية.¹ الصوفية كما يراها أدونيس تختلف عن النظرة التقليدية التي تجعل منها مجرد توجه يحاول ملامسة الغيب أو البحث فيه وأنها منفصلة عن الواقع أو العالم بل الصوفية التي يسعى أدونيس إلى ابرازها هي تلك تجعل الواقع بارزا معاشا، معبرة عن الذات الإنسانية وتجعلها تختبر الحياة مؤكدة عن وجودها، تبحث في علاقة الانسان وخالقه محاول تفسير الوجود الإنساني وعلاقته بالذات الإنسانية.

يرى ادونيس أن هناك تشابه كبير بين اللغة الصوفية واللغة الشعرية وأنهما لهما قوة خارقة وغير عادية في تفسير الظواهر وفهمها خاصة فيما يتعلق بأسرار الوجود وغموضه، فكلاهما لهما القدرة على تجاوز الفهم العادي للأشياء وكذا تجاوز مقولات العقل البسيطة الساذجة إلى فهم أكبر وأعمق «أما احتكاكه بالأدبيات الصوفية فإنه كان اول منبه له إلى وجود تماثل بين اللغة الشعرية الأصيلة واللغة الصوفية من حيث الطابع المجازي والرمزي والانغراقي للغة في الحالتين مما قاده إلى افتراض وجود تماثل بين التجربة الشعرية والتجربة الصوفية كامن في انهما كليهما طريقتان غير عاديتين للاتصال بالحقيقة المتجاوزة لعالم الظواهر"² ساعد التوجه الصوفي لأدونيس على فهم الشعرية العربية ولغتها وهذا ما أوحى له بوجود علاقة تكاملية بين لغة الصوفي والشاعر كونهما يسعيان ويبحثان في حقيقة الوجود ومحاولة الكشف عنها وتفسير الغموض وتجاوز التفسيرات الساذجة التقليدية فلم تعد اللغة الشعرية مجرد "

¹ أسامة إسبر: أدونيس الحوارات الكاملة (1960-1980) مصدر سابق، ص 48

² عادل ظاهر الشعر والوجود (دراسة فلسفية في شعر أدونيس)، دار المدى للثقافة والنشر سوريا، دمشق، ط1، 2000، ص 47

وسيلة، وإنما تصبح فعالية الكيان الإنساني ..إنها تولد الأسئلة لا حول الأدبية بل حول معنى الوجود والإنسان وهي إذن تكشف عن العالم الخفي في الإنسان¹ هنا عمل أدونيس على إبراز توجهه الصوفي وربطه بالجانب الشعري للنهوض بالقصيدة العربية المعاصرة. يقول: " كما ان لغة التجربة الصوفية تعيد النظر تجاوزيا في لغة السائد الشرعي (الظاهر) تأسيسا للغة الأصل (الباطن)² ينظر أدونيس إلى الصوفية أنها تحررت من اللغة الدينية الكلاسيكية وأنها في غنى عنها حيث تغيرت وتحولت إلى لغة للتعبير عن المطلق ووصفه وأصبحت قادرة على قول ما لا يقال وكشفه.

يطرح أدونيس فكرة الإنسان الكامل والمركزية بحيث تغيرت النظرة الكلاسيكية للذات الإلهية وأصبحت الذات الإنسانية هي مركز للأفعال والسلطة والقرارات بدلا من الله، وهذه الفكرة (الإنسان الكامل) يمكن أن نجد ما يقابلها في الماركسي التي تقول بفكرة الإنسان الكلي وقوته ومركزته في التغيير وإعادة بعث الإنسانية عن طريق الإنسان ذاته ويذهب أدونيس على جانب آخر وهو أن الشعر لا يستطيع: " أن يتفتح ويزدهر إلا في مناخ الحرية الكاملة، حيث الإنسان مصدر القيم، لا الآلهة ولا الطبيعة، حيث الإنسان " " هو الكلي على الإطلاق، كما يقول معي الدين بن عربي "³ سعى أدونيس إلى إبراز علاقة الخالق بال مخلوق ففي نظره الذات الإنسانية هي صاحبة القرارات والمصدر الوحيد لها ولا يمكن اعتبارها ناقصة فهي ليست بحاجة إلى قوة غيبية تقرر مكانها، بل يجب النظر إليها على أنها قوة كاملة وفاعلة تستطيع تقرير مصيرها وإثبات وجودها دون الحاجة إلى المقدس أو الذات الإلهية الغيبية .

¹ أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار الساقى، بيروت لبنان، 1992 ص 181

² أدونيس: الصوفية والسوريالي، مصدر سابق، ص 175

³ أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، بيروت 1980.ص 43

3. وحدة الحقيقة وتماهيمها عند الصوفية:

كشف حقيقة الوجود من خلال الرؤيا الشعرية:

اختلفت نظرة أدونيس الشعرية عن بقية الشعراء والمذاهب ففحين اعتبره البعض رمزا إلا أن أدونيس أشار في العديد من كتاباته أن الشعر هو كشف ورؤيا تحاول تفسير العالم والوجود "وإذا كان الشعر رمزا عند الرمزيين والسرياليين، فإن ما نادى به أدونيس في الكثير من كتاباته النظرية عن الشعر، بأنه خصص مبحثا في كتابه " زمن الشعر " بعنوان " الشعر عن عالم يظل في حاجة إلى الكشف " ¹ يحتاج العالم في نظر أدونيس إلى الشعر ليتمكنه من كشف خباياه وتفسير الغموض الذي يكتنه الوجود فهو يرى أن الشعر يحاول تفسير الحياة وتغييرها وله القدرة على تغيير العالم وتحويله إلى لغة شعرية فنية، فالشعر بالنسبة له لغة جديدة تؤسس لعالم جديد لا عهد لنا به حيث تدخل الذات الشاعرة في مغامرة الوجود بحثا عن الجديد نافية كل قديم مبتذل هدفها الوصول إلى أعماق الكينونة من خلال الكشف والاستبصار

يرجع مصطلح الكشف إلى التصوف الإسلامي والتي يقصد بها إزالة الحجب والستار عن الذات العارفة لتتلقى المعارف واليقين من الذات الإلهية دون واسطة وهذا ما يحاول أدونيس دائما الإشارة إليه "إن مفاهيم أدونيس في الكشف ذات أصول صوفية خاصة حينما يربط بين الكشف والمجهول، والكشف والمعرفة هذا ناهيك عن بقية الارتباطات الأخرى" ² كان تأثير الصوفية والسورالية واسع خاصة فيما يتعلق بالبحث عن المعرفة وتلقيها والوصول إلى اليقين وتمثل هذا التأثير في الكشف الذي يستخدمه المتصوف للوصول إل اليقين وإلى الذات الإلهية مباشرة وتحصيل المعارف ونقلها من الإله إلى ذات المتصوف .

استعان أدونيس بقول محي الدين بن عربي ليظهر علاقة المتصوف بالمقدس فذهب إلى إسقاط أفكاره الوجودية الغربية على الصوفية الإسلامية مركزا على أهم أقطاب الصوفية وهما النفري وابن عربي مشيرا إلى أن هناك علاقة تجمع بين الذات الإلهية والمتصوف وأن ثمة تواصل مباشر بينها باعتبار الإنسان هو نسخة مصغرة عن الذات

¹ شير تاوريرت: آليات الشعرية الحدائية عند أدونيس مرجع سابق، 163

² بشير تاوريرت: آليات الشعرية الحدائية عند أدونيس نفس المرجع سابق، ص163

الإلهية وهي امتداد لها تعسى هذه الذات المتصوفة إلى ممارسة كينونتها والتأسيس لوجودها عن طريق الشعر.

نظر أدونيس على الرجل الصوفي انه رجل خارج عن قوانين الشرع الإسلامي له ميزة خاصة تؤهله لأن يتصل بالخالق بصفة مباشرة بدون واسطة الدين، وهو بهذا ينزع عن الصوفية صفة التصاقها او تبعيتها للدين "وإذا كان أدونيس قد اعتمد الصوفية مصدرا حدثا فإنه جردها من الانتماء الديني، ونظر إليها باعتبارها خروجاً على قنوات الشرع الإسلامي، لأن الصوفي في نظره يتصل بالخالق اتصالاً مباشراً مجاوزاً الرسل"¹ يرى أدونيس ان الصوفي لا يحتاج لواسطة اتصال بينه وبين خالقه وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى الرسل أو الأنبياء فهو يتلقى الرسالة بطريقة مباشرة من الإله نحوه كذات عارفة تعي كل المفاهيم والقضايا المجردة بما فيها قلق المصير وسؤال الوجود ومن هنا كان لفكرة الصوفية الأثر البارز في تكوين الفكر الشعري الوجودي عند أدونيس ذلك أن انتزاع الصفة الدينية عن الصوفية هي التي أدت بأدونيس وأوحت له بأن هناك جانب خفي غير ظاهر لا يستطيع الإنسان العادي إدراكه غير الصوفي الذي يتميز بصفة التواصل مع الله بدون واسطة "الحدس الصوفي (الشعري) طريقة حياة وطريقة معرفة في آن: بهذا الحدس نتصل بالحقائق الجوهرية، وبه نشعر أننا أحرار قادرون بلا نهاية. إنه يرفع الإنسان إلى ما فوق الانسان ونشعر بالارتفاع إلى ما فوق الانسان أننا نتخطى الزمن وقبوده، أننا حركة خالصة"² يملك الصوفي ميزة خاصة تميزه عن بقية البشر فهو يستطيع التنبؤ بالمستقبل واستشرافه، ومن هنا تسعى الصوفية للرقى بالذات الإنسانية وجعلها موازية للخالق وفي اتصال مباشر معه وهذا ما يجعلها مصدر الحقائق والأحكام .

يرى أدونيس ان ادراك العالم والبحث عن الوجود لا نستطيع إدراكه عن طريق الحواس أو مقولات العقل البسيطة لان ذلك يتجاوز قدراتنا العقلية بل هناك جانب روحي خفي له القدرة في البحث عن باطن الوجود وكشف أسراره وهذا الجانب متمثل في الصوفية التي لها القدرة في تحصيل المعارف وكذا الوصول إلى اليقين الحقائق " في الوجود جانبا باطنا لا مرثيا، مجهولا وأن معرفته لا تتم بالطرق المنطقية -العقلانية،

¹ عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، الدار العربية للنشر والتوزيع، مصر، ص 176

² أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص 132

ولأن الإنسان دونه، دون محاولة الوصول إليه كائن ناقص الوجود والمعرفة...فالتجارب الكبرى في معرفة الجانب الخفي من الوجود تتلاقى، بشكل أو آخر فيما وراء اللغات، وفيما وراء العصور وفيما وراء الثقافات"¹.

رأى أدونيس أن الوصول إلى معرفة الوجود وسبر أغواه لا يمكن إلا عن طريق عن طريق لغة التلميح والتميز وتجاوز اللغة البسيط المألوفة ولا يتأتى ذلك إلا بالرجوع للغة الشعرية لأنها وحدها تستطيع قول ما عجزنا عن قوله وبهذا يكون اتحاد الصوفية واللغة الشعرية تمكننا من الوصول إلى حقيقة الوجود وبالتالي الكشف عن كل ما هو سري مخبأ وملامسة الغموض .

حاول الصوفي كشف المعارف وإزالة الحجاب عن الحقائق الإلهية فعملية الخلق أو الكشف عند الصوفية هي شعاع النور الباحث عن الحقائق والمعارف اليقينية الهادف إلى معرفتها وفهم أسرارها واكتشاف وهذا لا يكون إلا باتصال الصوفي ي اتصالاً مباشراً بالذات الإلهية وكذا الحال عند أدونيس الذي يعتبر الشعر خلق وكشف يمكن الشاعر من تحصيل المعارف ومعالجة قضايا الوجود والإبحار في المجهول واكتشافها دون واسطة بل يكون هذا الكشف بين الذات الشاعرة والإله .

يسعى الكشف الأدونيسي إلى الوصول إلى العالم ما بعد الموت وكشفه وتجاوز الواضح الجلي أي مهمة الشعر عند أدونيس هو الانتقال من العالم المرئي الواضح إلى العالم الميتافيزيقي الغيبي وكشفه وتفسير غموضه وعدم الاكتفاء بالتفسيرات الساذجة العامة ومن هنا تتضح وظيفة النص الشعر الحدائثي الرامي إلى إزالة الستائر وتمزيق القيود والثوابت وعند أدونيس الشعر الذي لا يحوي على خصائص الكشف ليس جدير أن يقال عنه شعر يبقى مثله مثل الكلام العادي اليومي لذلك عمل أدونيس على تطويع " الرؤيا ليحولها إلى مخصب دلالي مؤسساً لحوار بين الداخل والخارج بجدلية تتوخى الكشف عن العلاقات الوجودية بما فيها من تناغم وتناقض خارج البعد الحقيقي للزمان والمكان "² الرؤيا الأدونيسية هي رؤيا خلاقة مبدعة تحاول فهم قضايا الوجود ومعايشتها لتجعل من الذات الشاعرة وسيط بين العالم الواقعي والعالم الميتافيزيقي

¹ أدونيس: الصوفية والسورالية، مصدر سابق، ص 13

² أسمية درويش: مسار التحولات، دار الآداب، بيروت، ط1، 1992، ص 183 نقلاً عن حسناء بروش: الشعرية في ديوان "مفرد بصيغة الجمع" لأدونيس،، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، اشراف بشير تاويرت، جامعة محمد خيضر -مسكرة، 2007-2008، ص 49

بحيث تسعى هذه الذات الإنسانية إلى كشف المطلق والوصول إليه وفهم الوجود وإثباته .

يتطلع أدونيس إلى تغيير وظيفة الشعر ومهمة ليجعله شعر كشفي تلعب فيه الرؤيا الدور الأساسي وبهذا يصبح الشعر بهذا المعنى فعل خلق وبحث عن الحقيقة والنفوذ إلى صميم الوجود وكشفه يقول أدونيس: " إن الشعر الجديد هو بشكل ما كشف عن حياتنا المعاصرة في عبثيتها وخللها. إنه كشف عن التشققات في الكينونة المعاصرة." ¹ الشعر بالنسبة لأدونيس هو مغامرة كشفية تعطي للحياة وجودها وقيمتها فهو القادر أن يزيل قبح العالم وعبثية الأفكار والمعتقدات، فهو السبيل للخروج من الانغلاق والتجرد وبواسطته تستطيع الذات ممارسة وجودها معلنة عن حرمتها كاسرة لكل القيود والمعيقات.

يرى أدونيس ان الشعر هو الإبحار في المجهول ومحاولة الغوص فيه واكتشافه وتعد هذه مهمة الشاعر الرائي الذي يحاول تخطي الوضوح ونجد هذه الفكرة "الكشف" عند الصوفي الذي يسعى إلى تجاوز العالم الحسي الملموس والوصول إلى الذات الإلهية والالتقاء معها روحيا ومن هنا يصبح الشعر قرين النظرة الصوفية فكلاهما يسعى إلى البحث في العالم الأخرى واكتشاف الحياة ما بعد الموت والتنبؤ واستشراف ما هو آت عن طريق دخول العالم الخفي فالشعر الحقيقي عند أدونيس ليس "الوضوح والبداهة وأنه على العكس دخول في عممة العالم الشعر هو هذا الرحيل في المجهول حيث تغيب الأنا في نشوة الانخطاف، وتصبح هي الوجود والنحن والهو: تصبح أنا لا أنا" ² تذوب ذات الشاعر المكتشف وتنخرط في الوجود وتصبح الذات والوجود شيء واحد تبحث وتسمى إلى الوصول إلى اليقين وكشف المجهول وإزالة اللبس وتخطي القلق، فالشاعر يتلقى مع الصوفي من خلال النشوة الروحية الرامية إلى الكشف وملامسة الغموض والإبحار في العالم الغيبي المجهول ومحاولة كشفه ومعرفته والوصول إلى اليقين .

أكد أدونيس تميز الشاعر والصوفي عن غيره من البشر، فالشاعر الحقيقي هو باحث عن الحقيقة يسعى لتخطي الغموض وإزالته والوصول إلى الحقائق المطلقة، فالشعر هو

¹ أدونيس زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط2، 1978، ص 19

² أدونيس، الصوفية والسورالية، مصدر سابق، ص 239-240

ممارسة لاواعية تسعى فيها الذات إلى تأسيس الوجود لتعطي للأشياء معنى وتحاول إعادة بعثها وتركيبها من جديد ومن هنا فالشاعر الحقيقي عند أدونيس " ليس شاعر إلا بشرط أولي يراه مالا يراه غيره أي يكشف ويستيق .."¹ يتميز الشاعر عن الإنسان العادي من خلال شعره ورؤيته وتنبؤاته المستقبلية، فالشاعر يعمل على رقي الذات الإنسانية والبلوغ بها إلى درجة النبوة وعندها يتساوى الشاعر بالنبي فكلاهما يحاولان تبليغ رسالة غير أنهما يختلفان في الوسيلة وفي طريقة التبليغ، فالشاعر يعتمد على النص الشعر المتضمن لمواطن الكشف والرؤيا.

وحدة الوجود:

حاول أدونيس بدوره معالجة سؤال الوجود وتفسيره متأثراً بالفكر الصوفي بحيث عمد إلى تجاوز للثنائيات الساذجة التي تبحث في علاقة الموت بالحياة وراح يجمع بين المتناقضين مجاوزا المعارف القبلية محاولا التأسيس لطريقة صوفية مستندة على أقوال الصوفيين وأراؤهم الخاصة بوحدة الوجود الساعية لتجاوز كل الثنائيات لينظر إلى الوجود على أنه كلا واحدا، حيث "يرفض أدونيس الثنائية، يرفض الجنة والنار، الوجود وما وراء الوجود الخالق والمخلوق، ويقبل الوحدة، وحدة الوجود وقد حقق أدونيس ذلك " المذهب) في الصيرورة والتحول والفاء والوحدة كأجلى ما يكون في العمل الذي كتبه بعد " مفرد بصيغة الجمع " وهو ال"القوائد الخمس "²

يؤكد أدونيس على وحدة الحقيقة وتماهيا وهي نفس الفكرة التي يراها ويؤسسها عن وحدة الوجود فهو يرى أن تماسك الوجود ووحدته يقصي تجزئة الحقيقة او معرفة نصفها فقط لذلك كان لزاما على من أ أراد أن يصل إلى معرفة الوجود أن يعرف الحقيقة كاملة دون نقصان، فالحقيقة عنده هو ما نعجز عن قوله وليس بالضرورة هو ما نصح عنه دائما، وهنا تلتقي الحقيقة بالوجود من ناحية الغموض والإبهام «فالحقيقة ليست في ما يقال أو في ما يمكن قوله، وإنما هي دائما في مالا يقال، في ما يتعذر قوله، إنها دائما في الغامض، الخفي، اللامتناهي "³ كان لأثر الصوفية عمق كبير في تكوين الفكر الشعري الأدونيسي وساعده على التحرر من اللغة التقليدية وأساليبها

¹ أدونيس: زمن الشعر، مصدر سابق ص 284

² إبراهيم منصور الشعر والتصوف(الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر)، مرجع سابق ص 257

³ أدونيس: الصوفية والسوريالية، مصدر سابق، ص 188

لبسيطة المتداولة ومن هنا تغيرت نظرة أدونيس للعالم والوجود وأصبح أكثر تحررا من ذي قبل، ينظر للأشياء نظرة مغايرة لا تقف عند الفهم العادي البسيط التي تكون اللغة العادية سببها بل يتعدى هذا الفهم إلى فهم آخر هدفه الوصول على الحقيقة ولا يتأتى ذلك إلا بلغة شعرية غامضة أساسها التلميح والتخفي دون الإفصاح المباشر.

ألح أدونيس على رفض وتجاوز كل المعتقدات والمقدسات والثوابت الدينية باعتبار أن لا يوجد هناك مقدمات نحتكم لها بل هناك ذات إنسانية وجب تقديسها العودة إليها وهنا نجد تشابه بين موقف أدونيس والوجودية الإلحادية المعاصرة الداعية لنزع القدسية عن الذات الإلهية " وذلك ما جعل أدونيس يصرح بلا موازية بأن المطلق الإلهي وحده لم يعد مركزا، بل صار الإنسان شريكا له. ذلك هو الجانب الصوفي (والعقلاني الإلحادي، لكن على مستوى آخر) من هذه الثورة " ¹ يظهر هنا تأثير أدونيس بالثقافة الوجودية الإلحادية التي ترى أن الشرع ليس من هو يقرر أو يحكم العالم بل أصبح الإنسان المعاصر هو صانع لأفعاله وخالق لها، ومشرع لكل القوانين حيث تبنى أدونيس هذه الفكرة وحاول ربط فكرة المركزية بالتوجه الصوفي ليصبح بذلك الفرد الصوفي يشترك مع الذات الإلهية ويتقاسم معها دور تقرير المصير وكشف الوجود والتنبؤ بالمستقبل .

هدف الشعر عند أدونيس هو قول حقيقة الوجود والتعبير عن الذات الشاعرة الطموحة الساعية للتغيير والباحثة عن الحرية والكشف جاعلة من الشاعر المنصوف ذاتا تعمل على جعل الثنائية في جسد واحد جامعة بين الممكن والواقع بين الوجود واللاوجود.

يحاول أدونيس أن يضع الذات الإنسانية كمصدر للقوانين والمعايير بعيدا عن فكرة الله ومن هنا يتحرر الشاعر ويتجاوز الأوامر والنواهي التي تصدر من طرف فكرة غيبية غير مرئية وبهذه الحرية يستطيع الشاعر أن يمارسه وجوده ويفرضه حرته ويكون هو مقرر وصانع لأفعاله وأخلاقه دون غيره وهكذا سيعمل " الإنسان الذي يشعر بحرته، ويريد أن يعيش بملء هذه الحرية سيعمل بالمقابل على أن يكون هو نفسه في مستوى الخليفة، يحول الكربة طيبا، والحرم حلالا، والمنفر جذابا، يعكس القيم، يجرب كل

¹ عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، مرجع سابق، ص171

شيء، يعاني كل شيء، لكي يثبت أنه لا يحيا تحت رحمة أي شيء" ¹ يعتبر أدونيس الإنسان حر يقرر ما يريد ويصبح هو مصدر الأخلاق والمعايير وفق ما يراه هو مناسب لذاته ورغباته ويتحول هذا الإنسان ذاتا إلهية في نفسه يغير القبيح على جميع والحرام إلى حلالو هكذا يصبح هو صانع وخالق للأفعال والأخلاق وبهذا يتحرر من قيود الاعتقاد بفكرة الأخر أو الله المقرر بدله .

يؤكد أدونيس على أهمية الحرية ودورها في تحرير العقول والذوات وخاصة الشعر الذي لا ينمو ولا يتقدم إلا في مناخ الحرية كما يعتبر أن الإنسان هو مصدر القوانين والأحكام وان الشعر لا ينمو إلا داخل بيئة تكسوها الحرية المطلقة باعتبار أن الشاعر هو مصدر ومنبع للحقيقة وصانع لها، كما نجده ميله الشديد بمجال التصوف وخاصة معي الدين بن عربي في حديثه عن علاقة الله بالمتصوف باعتبار هذا الأخير في علاقة مباشرة مع الله وهو في اتصال دائم معه دون واسطة ويذهب أدونيس إلى أبعد من هذا في اعتبار أن باعتبار الإنسان مقياس كل شيء ومن هنا تحدث أدونيس: " معتمدا على قول معي الدين بن عربي إلى أن ثمة توحدا بين الله والإنسان، باعتبار أن الإنسان هو "العالم الأصغر" الذي يتطوي فيه "العالم الأكبر". وقال في كتابه " مقدمة للشعر العربي ": "الإنسان هو لا الله هو مقياس الأشياء، وما الطبيعة إلا مجال لفعله ومرآة لتجاربه" ² يعتبر أدونيس أن الإنسان يستطيع تقرير مصيره وحياته في هذا العالم مستندا على قول معي الدين بن عربي الذي يرى ان الإنسان هو العالم الصغير وهو في علاقة مع العالم الأكبر الذي هو الله .

يوازي أدونيس بين الإنسان والله في إقامة القوانين والمعايير وأن تشريع الأخلاق أو الأفعال لم تعد حكرا على الله بل يتقاسمها مع الإنسان ويصبح هذا الأخير في نفس الدرجة مع الله ولا فرق بينها وأن الذات أو الشاعر ليس ملزما بالانصياع لسلطة خارج ذاته فهو سيد نفسه يقرر ما يريد، ذلك: "بأن المطلق الإلهي وحده لم يعد مركزا، بل صار الإنسان شريكا له. ذلك هو الجانب الصوفي (والعقلاني -الإلحادي، لكن على مستوى آخر) من هذه الثورة، المطلق الإلهي في منظرو التجربة الصوفية، معنى لكن

¹ أدونيس: الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والأبداع عند العرب (تأصيل الأصول)، دار العودة، بيروت، ج2، 1979، ص 113

² عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، مرجع سابق، ص 170

هذا المعنى مقترن وجوديا بالصورة – أي بالملطق الإنساني " ¹ تغيرت مركزية الكون من الذات والإلهية إلى الذات الإنسانية وأصبح المخلوق هو المركز الوحيد وليس تابع لسلطة عليا أخرى، بحيث يسعى الصوفي على حسب أدونيس إلى تقاسم الدور الإلهي مع الله وذلك بتنبؤه واكتشافه واستشرافه للمستقبل، ومحاولاته الدائمة الساعية للبحث عن وحدة الوجود وتفسير غموضه وإزالة الحواجز والأسوار أو ما يسمي بالثنائية التي تفصل بين الخالق والمخلوق، ليوحد الشاعر الصوفي بينهما ويصبح الإنسان هو الخالق والمخلوق في الوقت نفسه، وأدونيس من بين الشعراء الذين تأثروا بهذه الفكرة " وحدة الوجود" نقلا عن ابن عربي غير أنه طور فيها وأصبغها صبغة رمزية ماركسية ويمكن ان نقول عنها إلحادية وذلك برفضه للذات الإلهية واستبدالها بالإنسان معتبرا إياه مركزا وأساسا للمعارف والحقائق الكلية المطلقة .

يرى أدونيس أن هناك وحدة بين الله والمتصوف وهذا ما ينتج عنه الشعر الملون بصبغة صوفية تجعل من المتصوف يعيش في حالة سكر وفناء وذوبان في عالم آخر يؤدي إلى الشطح والحلم وهذا هو أعلى درجات السكر عند الصوفي والتي تنتقل بدوها إلى الشاعر المتذوق والمتتبع للتراث الوصفي، بحيث يسعى الشاعر هنا إلى أن يزيل كل مظاهر التفرقة والغموض ويسعى إلى قول وحدة الوجود والذوبان في المتناهي والاندماج فيه يقول أدونيس: " المتصوف يحيا في سكر يسكر بدوره العالم، وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على ان يكونه هو والله واحد. صارت المعجزة تتحرك بين يديه " ² يسعى أدونيس إلى نهج مسار كل من سيقوه أمثال جابر بن حيان والراوندي الذين نبذوا فكرة الله وعملوا على أعمال عقولهم خاصة فيما يخص قضايا الوجود وبداية الخلق والنبوة وكذا تحصيل المعارف والحقائق، فيرى أدونيس ان الذات الإنسانية تلتقي الوحي من داخل ذاتها عن طريق العقل وأنها في استغناء عن مصدر غيبي يأمرها او يرشدها

¹ دونيس: الثابت والمتحول: (بحث في الاتباع والابداع عند العرب)، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط1، 1978، ص264،

² عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، مرجع سابق ص 170

الخاتمة:

غاية القصيدة المعاصرة والحداثية مع أدونيس خلق عالم جديد وتجاوز الرؤيا الساذجة البسيطة بحيث يصبح الشعر هنا قرين الفكر يرمي إلى الخلق والبحث في العالم المجهول وكشف حقائقه وبهذا يصبح الشعر انفتاحا عن المجهول ملامس للحقائق والمعارف ومكتشفا للوجود

مؤسسا بهذا لعالم ورؤيا جديدين تعي من خلاله الذات الشاعرة دورها وأهميتها ووظيفتها الجديدة

يسعى الشاعر من خلال رؤياه الشعرية إلى تجاوز المعطى الواقعي وحيثياته اليومية لينسلخ ويتجرد من واقعه البسيط باحثا عن المجهول والغامض ومتطلعا للمستقبل محاولا إدراك الحقائق وتحصيل المعارف بحيث يصبح الشاعر سابق لزمانه يعيش وجوده ويثبت كيانه من خلال رؤياه الشعرية، فالنص الشعري الصوفي مع أدونيس هو كشف للغموض وتجاوز للواضح ونفيا له وهو بحث في الوجود وتأسيسا له يسعى أدونيس من خلاله إلى تخطي وتجاوز الملموس المرئي والبحث في الغيبي الميتافيزيقي برؤية استشرافية مستقبلية بحيث يصبح الشعر دفعا قويا للحياة يخلق في الذات المكتشفة حب التطلع والخلق والبحث عن العالم الحقيقي وعالم الحقائق المطلقة والثابتة

حاول أدونيس الاحتفاء بالصوفية وجعلها الأساس الذي يحتكم له العالم بحيث تغيرت المركزية والسلطة من الذات الإلهية إلى الذات الإنسانية وأصبح هذا الأخير مصدرا للمعارف ولحقائق والأخلاق ومشرعا لها وبهذا يعلن أدونيس بواسطة توجيهه الشعري الصوفي التمرد والثورة عن كل ما هو ثابت جاعلا من الذات الإنسانية اليد التي تشرع وتسنع القوانين وبهذا يثبت هذا الإنسان أو الشاعر الصوفي وجوده ويعبر عن كينونته ليكشف عن مواطن الغموض ويعيش ويمتحن عوالم جديدة متجاوزا لكل الثوابت الأنظمة وهذا من شأن أن يعطي للوسط الشعري العربي دفعا ورؤية فكرية وبعدا ثقافيا آخر غير مسبوق .

ينظر أدونيس للتجربة الصوفية أنها تجربة فريدة يستطيع الشاعر بفضلها التحرر من العالم المادي المرئي والوصول إلى العالم الغيبي الميتافيزيقي، بصفته تجربة ذاتية عميقة تسعى بالإنسان إلى تجاوز الواقع والتحرر منه وتمكنه ن الاتصال بالذات

الإلهية مزيلة لكل الستائر وكاشفة للغموض، فالصوفية بالسببة لأدونيس تخلص الذات من اغترابها

استطاع ادونيس ان يرسم لنفسه ونهج شعري حدائي معاصر هدفه قول الحقيقة والوصول إليها متجاوزا ومحطا لكل القيود الشعرية السابقة بحيث كانت له اسهامات فعالة وإبداعية للنص الشعري العربي. وفتح المجال لبقية الشعراء لتجربة ودخول العالم الفلسفي الميتافيزيقي محاولا بذلك إلى التأسيس للمجهول للغامض وإعادة فهم الشعرية العربية من جديد وربطها بالفكر الغربي والصوفي معا .

المصادر:

1. أدونيس: الثابت والمتحول: (بحث في الاتباع والابداع عند العرب)، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط1، 1978
2. أدونيس: الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والأبداع عند العرب (تأصيل الأصول) ج2، دار العودة، بيروت، 1979
3. أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط3، 1979،
4. أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، بيروت 1980،
5. أدونيس: زمن الشعر دار العودة بيروت، ط2، 1978
6. أدونيس: الصوفية والسوريالية دار الساتي، بيروت لبنان، 1992،

المراجع:

1. إبراهيم محمد منصور: الشعر والتصوف (الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر)، جامعة طنطا، 1995.
2. أسامة إسبر: أدونيس: الحوارات الكاملة، الجزء الأول، (1960-1980)، بدايات للطباعة والنشر، سورية، ط2 2010
3. أسجة درويش: مسار التحولات، دار الآداب، بيروت، ط1، 1992
4. بشير تاويرت آليات الشعرية الحداثية عند ادونيس (دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، عالم المعرفة، القاهرة، ط1، 2009
5. حسناء بروش: الشعرية في ديوان "مفرد بصيغة الجمع" لأدونيس،، مذكرة لنيل شهادة الماستر، اشراف بشير تاويرت، جامعة محمد خيضر -بسكرة، 2007-2008
6. صقر أبو فخر حوار مع أدونيس (الطفولة، الشعر، المنفى)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2000
7. عادل ضاهر: الشعر والوجود (دراسة فلسفية في شعر ادونيس)، دار المدى للثقافة والنشر سوريا، دمشق، ط1، 2000
8. عدنان حسين قاسم: الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، الدار العربية للنشر والتوزيع، مصر
9. وائل غالي: الشعر والفكر أدونيس نموذجاً الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001